الشعر والموسيقى

للشاعر الكبير بول فاليرى

عضو المجمع الفرنسى

مترجمة بقلم الأديب عبد الرحمن صدقى

خير عون على ادراك مافى عمل الشاعر من مشقة وصعوبة ، أن نقارن بين مافى يديه من عتاد عند البداية ، وبين العتاد الذى يتصرف فيه الموسيقار . فانظروا هنيهة ماهو مبذول لهذا وماهو مبذول لذاك وهما مقبلان على العمل ، وقد خرجا من حيز النية الى حيز التنفيذ

فما أبسط الموسيقار ! إن تطوره قد هيأ له عدة كثيرة المزايا . فوسائله معينة مفصلة ، ومادة تأليفه موضوعة وضعها المحكم من قبله . وقد يصح تشبيه بالنحلة حين لا يصبح لها هم غير عسلها ، حين تكون أقراص الموم المنتظمة وتخاريب شهادها مصنوعة قبلها . فمهمتها مقدورة مقصورة على اخراج خير ما عندها . ذلكم حال الموسيقار . بل انه ليصح القول بأن الموسيقى قديمة الوجود ، وأنها كانت تنتظر الموسيقار . وقد مضى عليها وهى تامة الوضع دهر دهير .

فكيف كانت للموسيقى أوضاعها ؟ نحن نعيش بالسمع فى عالم الضوضاء ، ومن جملة هذه الضوضاء تنفصم مجموعة من ضوضاء لها بساطة خاصة انفردت بها ، بحيث تميزها الاذن وتقوم لها بمثابة المعالم . وتلك عناصر لها فيما بينها علائق بديهية . وهذه العلائق الصحيحة الملحوظة بين العناصر ندركها ادراكنا للعناصر نفسها . فالفترة بين نغمتين نحسها مثل احساسنا بالنغمة

ومن ثم فهذه الوحدات ذات الرنين ، هذه النغمات ، قمينة بأن تتركب . بها تلكم التواليف المطردة ، وتلكم المنظومات المتتابعة أو المتحدة فى الزمن ، التى تطلع لنا فتروعنا ببنائها وسياقها وتواشجها وتقاطعها .

ونحن نميز حق التمييز بين النغمة والضوضاء ، وعند ندرك التباين بينهما ، وهذا احساس له خطورة كبرى ، لأنه التفريق بين الخالص وغير الخالص ، ويستطرد ذلك الى التفريق بين النظام والفوضى ، وهذا أيضا يرجع الى أحكام قوانين ذات أثر فعال . ولكننا نكتفى بهذا القدر

وهذا التحليل أو التمييز للضوضاء قيض للانسان ايجاد الموسيقى على أنها عمل قائم بذاته ، واستقلال لعالم الاصوات . والفضل فى انجاز هذا أو على الاقل فى ضبطه وتوحيده وجمع قوانينه ، يرجع الى علم الطبيعة ، الذى صار استكشافه هو ذاته بهذه المناسبة وعرف بأنه علم المقاييس . وقد استتاع هذا العلم من قديم الزمان الملائمة بين القياس وبين الاحساس ، وأمكنه البلوغ الى نتيجة كبرى وهى احداث الاحساس بالصوت على نحو دائم متماثل بواسطة آلات . وما هذه المعازف فى حقيقتها الا آلات للقياس !

فالموسيقار يجد فى حوزته مجموعة وافية من الوسائل المخزونة المفصلة تقابل بين الاحساسات والنغمات أتم المقابلة . فكم يحاضر عزفه حاضرة بين يديه ، محصاة العدد ، مرتبة الصفوف . وهذه الاحاطة الفنية منه بوسائله بحيث لم يقف عند الالمام بها بل نفذ إلى كنهها وتزود بها فى صميم نفسه ، تمكنه من التقدير والتدبير ، ومن البناء والتركيب ، من غير أن يشغل خاطره بمادة عمله ، وميكانيكية فنه بوجه عام .

ويحصل من ذلك ، أن يكون للموسيقى مجال خاص بها ، هو مجالها على الاطلاق . واذا عالم الفن الموسيقى ، أى عالم الاصوات ، ظاهر الانفصال عن عالم الضوضاء . وبينما ان حركة من الضوضاء لاتبعث فى وعينا إلا حدثا مفردا . فان نقرة واحدة من النغمات تبعث وحدها كل العالم الموسيقى . وهذه القاعة التى أحاضر فيها والتى تحسون فيها نغط صوتى أو غيره من شتى العوارض المسموعة ، اذا أنتم سمعتم فيها على حين غفلة نغمة من النغمات ، اذا اهتز وتر أو نبضت آلة منغومة

فانه لايكاد هذا الصوت الفذ الذى لايختلط بغيره من الاصوات العادية يمس اسماعكم ، حتى تحسون فيه فاتحة واستهلالا وحتى ينشأ فى الحال جو آخر ، وتخيم على الجميع حالة انتظار خاصة ، ويؤذن بالظهور نظام جديد بل عالم جديد ، وتتهيأ نفوسكم اصاغية لاستقباله ، بل ان بها لجنوحا من تلقاء نفسها الى توسيع مقدماته : والى توليد احساسات لاحقة بالاحساس الوارد على نفوسكم ، وعلى شاكلته وفى مثل صفائه

وكما توفر لنا الدليل طرداً فهو متوفر عكسا

فاذا وقع فى قاعة من دور السماع ، والالحان ترن فيها وتسودها ، أن هوى مقعد ، أو سعل ساعل أو اصطك باب ، فسرعان

ماتشعر بانقطاع لاتدرى ماهيته وبان شيئا لايمكن وصفه ، أشبه بالسحر ، قدبطل أو بالزجاج ، قد تكسر اوانشعب .

وحاصل القول ان هذا الجو ، هذا السحر القدير الوشيك العطب ، هذا العالم من الاصوات ميسور لاهون مؤلف موسيقى وذلك بطبيعة فنه وبما يفيده مباشرة من هذا الفن .

وبخلاف هذاحالة الشاعر ، فانما أوتيه اقل حظا من صاحبه بما لايحد . فتراه يعالج مطلبا لا يختلف كبير اختلاف عما يرومه الموسيقاروهو محروم مما تقدم بيانه من المزايا العظيمة . فهو ملزم بان يخلق مبدئاً ومعيداً فى كل دقيقة ، مايلقاه الآخر جاهزا مهيا

يلقى الشاعر الأمور على شر حال من السوء والفوضى . فبين يديه هذه اللغة المعتادة ، هذه المجموعة من الوسائل الجافية الغليظة التى يطرحها كل علم مضبوط لكى يبتدع لنفسه ادوات التعبير عن اغراضه . فالشاعر لابد له من استعارة هذه الطائفة من الالفاظ والقواعد المأثورة المنقوله غير المعقولة التى صاغها من صاغها غريبة فى استعمالها ، غريبة فى تفسيرها ، غريبة فى قيد أحكامها

وأقل الامور صلاحا لمقصد الفنان ، هوهذه الفوضى الاصيله التى ينبغى له فى كل لحظة ان يستخلص منها عناصر النظام المنسوق الذى يريد استحداثه . ولم يرزق الشاعر بعالم من علماء الطبيعة فيحدد له الخصائص الدائمة لعناصر فنه ، ويعين علائقها ونسبها والاحوال المتماثلة لاصدارها . وليس لديه مفتاح للدوزان ! ولا ميزان لضبط حركة الاصوات ولا واضعون للسلم الموسيقى ، ولا متطسون فى أصول تركيب الأنغام ! وليس يصح عنده علم يقين ، اللهم الا العلم بالتموجات الصوتية المعنوية فى اللغة ، على أن هذه اللغة لا ترد مورد النغمة فى اتجاه واحد على السمع وهو الحاسة المثلى للتوقع والاصغاء ، بل اللغة بعكس ذلك ، خليط من المنبهات الحسية والنفسية غير متماسكة ، وكل كلمة هى مجموع وقتى من المؤثرات لا رابطة بينها ، فالكلمة تجمع صوتاً ومعنى ، بل أخطأت ، فان كل كلمة هى عدة أصوات وعدة معان معاً . أجل ، عدة أصوات ، أصوات عداد ما فى الوطن الواحد من أقاليم ، بل عداد ما فى كل اقليم من أناس ، وهذا ظرف عصيب على الشعراء ، اذ يفسد الوقع الموسيقى الذى دبروه ، وتشوه معالمه بتصرف القراء . ثم ، عدة معان ، لان الصور الذهنية التى توحيها لنا كل كلمة لاتخلو بوجه عام من اختلاف وصورها الثانوية التابعة تجد مختلفات

فالقول شيء مركب ، وهو مجموع خصائص مرتبطة بالفعل ومستقلة بطبيعتها فى آن واحد . والكلام يمكن أن يكون منطقيا عامراً بالمعنى ولكنه خلو من الايقاع خلو من الوزن ، وقد يكون عذب الورود على السمع وهو سخف ولغو ، وقد يكون واضحا وفارغا ، غامضا ولذيذا . . . .

ويكفى لتصوير ضروب الكلام وكثرتها العجيبة ، أن نعدد سائر العلوم التى نشأت للتوفر على بحث هذا التنوع ، وليستثمر كل علم عنصراً من عناصرها . فالواحد منها يستطيع دراسة نص من النصوص على وجوه شتى كل منها مستقل بذاته ، فيمكنك الرجوع به دواليك الى علم الصوت ، وفقه اللغة ، وتركيب الكلام والمنطق والبيان — وزد عليهما الوزن والاشتقاق

وهاهو ذا الشاعر يصارع هذه المادة غير المستقرة وغير الخالصة الى حد بعيد . فهو مضطر الى النظر طورا فطورا فى رقة الالفاظ وفى معناها ، واستيفاء الانسجام وتنغيم الفقرات ، فضلا عن شتى المطالب الفكرية والمنطق والنحو وموضوع القصيد وافانين البديع والوشى بله المتواضع عليه من القواعد

فتاملوا مبلغ الجهد الذى تقتضيه معالجة الاتقان لكلام يجب ان تتوافر فيه ، بمعجزة من المعجزات ، جميع هذه المطالب دفعة واحدة ؟

بائع حصير

(بقية المنشور على صحفة ٢٦)

لست أشرى الاثاث ، كل أثاث ... لعيونى يلوح ، ملك عيونى
كل هذا الوجود بيتى وفيه ... من بديع الاثاث ما يكفينى
فاثاث البيوت ليس بأبهى ... من رياض الاقاح والياسمين
صوروا البحر فى الحصير لكى يشـ
ـرى ويقنى والبحر يزخر دونى
واذا صوروا الغوانى بفلك ... فخيالى مصور ذو فنون
صوروا الكائنات تزهو وعنـ ... ـدى صور فقن عالم التكوين
واذا كنت ما اقتنيت اثاثا ... فخيالى أبهى الاثاث يربى

دمشق — احمد الصافى النجفى